

الحضارة العالمية وفلسفة اخوان الصفا

الموسم

سهى محمد الطريحي*

حيرت فلسفة اخوان الصفا وخلان الوفا الكثير من الباحثين . لو سأل سائل من هم؟ ولم لجأوا الى السرية في نشر بحوثهم؟ وما كان هدفهم؟ أسئلة أحاول تناولها في هذه العجالة ... ذكر الدكتور طه حسين في مقدمة كتاب مختصر لرسائل اخوان الصفا . بان المسلمين لم يعرفوا عصراً كالقرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، فقد شهدت تلك الحقبة جدباً فكرياً من ناحية. وكانت حقبة منتجة عند النخبة من ناحية أخرى، اذ انحلت الخلافة العباسية وسيطر الفساد والجواري على القصر مما ادى لطموح امراء الأقاليم في الاستقلال، اذ ان الفتح الاسلامي غزا أمماً وامبراطوريات عديدة. وكانت لتلك الأمم حضارات تاريخية وقد اراد العرب المسلمون صهرهم في بوتقة مسلمي شبه الجزيرة العربية ولم يحصل المخاض الا بعد عقود، أي بعد انفتاح الاسلام على اراث تلك الحضارات. وقد ادى ذلك التبادل والتزاوج الحضاري والأخذ والعطاء الى نهوض فكري وازدهار في حقول الشعر والنثر والعلم والفلسفة والتاريخ والجغرافية^(١). ولكن بالرغم من اعتناق تلك الأمم، التي تم فتحها من قبل مسلمي شبه الجزيرة العربية، فإنها احتفظت بتراتها. وقد تميز ذلك العصر بظاهرتين متناقضتين، ظاهرة الانحطاط السياسي من ناحية، والرقي العقلي من ناحية أخرى. ولعل أشد الحركات الفكرية تأثيراً في القرن العاشر الميلادي ودليلاً على الرقي الفكري هي جمعية اخوان الصفا وخلان الوفا. تلك الجمعية السرية التي نشأت في البصرة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، ومن الصعب معرفة كل أعضائها وعدد مقراتهم خارج البصرة، وقد لجأوا الى السرية ولم ينشروا أسماءهم خوفاً على حياتهم من العامة، شأنهم شأن النخبة «intelegensia» في كل زمان ومكان. فالتاريخ ملئ بالأحداث فقد تجرع سقراط السم وابن المقفع قتله والي البصرة، والحلاج اعدم واحرقت جثته ورمي رمادها في نهر دجلة، لذا لجأ الاخوان الى السرية، وكانت كل حلقة تضم عشرة من الاخوان العدد الفيثاغوري الكامل ويتسائل المرء هل تأثروا بالجمعيات الفيثاغورية في المستعمرات الاغريقية ولعل هناك في العراق منها اذ امتدت المملكة السلوقية لمدة ٢٠٠ عام بعد فتح الاسكندر المقدوني للعراق وامتدت حدود تلك المملكة الى ميسان الاهوار (العمارة) فهل تأثر الصابئة سكان

(١) رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا - الطبعة العربية بمصر - ١٩٢٨ - المقدمة - د. طه حسين

الاهوار بالفيثاغورية ومن ثم أثروا على اخوان الصفا؟ اسئلة اطرحها. وبنفس الوقت حاولوا نشر رسالتهم على اوسع نطاق وبدون مردود مادي دليلا على كونهم من ميسوري الحال وهناك من يمول آثارهم المخطوطة. ويقول الدكتور طه حسين ان قيمة الرسائل تكمن في اتجاهها لتثقيف الناس العاديين واخراجوها من العسر الفلسفي الى اليسر الأدبي. ويمكن القول بأنهم اعطوا للعقل مكانه كبرى وكانوا أول موسوعيين متنورين «انسيكلوبيديين»، وقبل فرنسا بقرون. ويقول فرهاد دفتري في كتابه مختصر تاريخ الاسماعيلية^(٢). أن افراد هذه المجموعة ذوي الارتباط الاسماعيلي الغامض. قد وقعوا تحت تأثير الافلاطونية المحدثة «افلوطين الاسكندراني الاشراقي» ويضيف قائلا: بأنهم هدفوا بشكل مشابه لمعاصريهم من الدعاة الاسماعيلية ذوي الصلة المضطربة بالقرامطة كما يذكر الدكتور عبد العزيز الدوري الى ملائمة الدين مع الفلسفة والعقل. ولم يكن لهم اي تأثير في الفكر الاسماعيلي في العصر الفاطمي، ولم تدخل الرسائل الى مرحلة الدعوة الا في القرن الثاني عشر الميلادي. اذ ادخلت في أدب الدعوة الاسماعيلية المستعلية الطيبية في اليمن و(امتدادها فيما بعد في الزيدية الامامية). وصارت موضع تعليق وشرح تلك الفترة على يد الدعاة الطيبين^(٣).

-١-

من ناحية أخرى فقد شهدت الحركة الاسماعيلية انبثاق عدة مدارس فقهية وفكرية ومنها الدعوة الفاطمية أو العبيدية والتي اسست دولتها في القيروان ومن ثم القاهرة لتصبح عاصمة الخلافة الفاطمية وبنانهم لجامع الأزهر ومدارس الحكمة لنشر الدعوة الفاطمية. ولا يخفى ان الاسماعيلية بكل فروعها سبقت وتزامنت مع الدعوة الفاطمية. ومن تلك الحركات النزارية والزيدية والخوجة والطيبية والبهرة وأنشق الدروس في تلك الفترة عن الفاطميين وغيرها. وقد شجع ضعف الدولة على بث افكارهم كما ساعد انفتاح الفقه الشيعي على الاجتهاد الى ظهور مدارس فكرية عديدة خاصة بعد اطلاق المسلمين على فلسفة الاغريق كرسوطاليس وافلاطون «الجمهورية الفاضلة» وما ترجم عن السريانية والفهولية مثل كليله ودمنه التي ترجمها ابن المقفع عن الفهلوية وبدورها كانت مترجمة عن «السنسكريتية» (البانجا تانترا) وهي قصص على لسان الحيوان لتوجيه الحاكم العادل. ونرى تأثير ذلك في رسالة الاخوان الحادية والخمسين في تداعي الحيوان على الانسان. وتروي تلك الرسالة الجامعة الحادية والخمسين قصة مجموعة من بني البشر تحطمت سفينتهم في جزيرة بعيدة هي جزيرة بلاصاغون التي يحكمها الحكيم ملك الجان بيوراساب. وفي تلك المحاكمات التي تقيمها مملكة الحيوان على الانسان لظلمه وتعسفه. ويشير الاخوان فيما يشيرون الى تزواج هؤلاء الانس التي غرقت سفينتهم في سواحل

(٢) فرهاد دفتري- مختصر تاريخ الاسماعيلية ترجمة دار المدى الشام

(٣) فرهاد دفتري مصدر سابق

بعيدة وكانوا من مختلف الاجناس البشرية مع نساء القردة !!، مما يستدل معه انهم سبقوا نظرية داروين في النشوء والتطور بقرون. وفي النهاية ينتصر العقل البشري على المساكين في مملكة الحيوان رغم منطقتهم. ولكن الانسان لديه من الحيلة والدهاء ليقنع المحكمة بتفوقه!!!!. وفي هذه المحاورات الفلسفية الجامعة، يتحدث كل سفير من مملكة الحيوان لدحض حجج الانسان في تفوقه وحتى الهوام والصرصار كممثل للحشرات وفيها من المنطق لاطهار تسلط الانسان التسفي على مقادير الطبيعة واستغلالها بجشع وكانهم بذلك كجماعة الخضر في القرنين العشرين والحادي والعشرين.

وفي معرض تلك المحاورات نجد ان الاخوان يدعون الى التفسير الباطني للقران وآياته وحروفه. مثل ما جاء في الآي الكريم «الراسخون في العلم».....

أما عن اختلاف الصور والقبح والجمال فقد دحض زعيم البهائم على الانسان كونه في أحسن تقويم مستندين بذلك الى المنطق، اذ يقول ذلك الزعيم اذا عبت أشكالنا وقبح صور بعض البهائم والحيوانات والحشرات والهوام بقوله «اذا عبت المصنوع فقد عبت الصانع»... وأنها كلها من مصنوعات الباري عز وجل، فما أشبه ذلك بالتقديس الهندوسي للحياة على مختلف صورها وكونهم نباتيين فهل كان من ضمن تلك المجموعة من زار الهند واطلع على دياناتها ومعتقداتها شأنهم شأن البيروني^{١٩}. ونجد في المحاورات إشارة إلى بزوغ وافول الامبراطوريات بانها دول ونوب تدور بين الناس مستندين الى قوله تعالى «وتلك الأيام نداولها بين الناس وما يعقلها الا العالمون» وقد سبقوا مقدمة ابن خلدون بقرون . وان البشر لايتعضون فأخلاقهم رديئة واعمالهم سيئة وجهالاتهم متراكمة وأراؤهم فاسدة ومذاهبهم مختلفة ولايتعضون بمواعظ الانبياء أو وصايا ربهم بقوله تعالى «وليعضوا وليصفحوا ألا تحبون ان يغفر الله لكم». وتتداخل في المحاورات، المحاورات الافلاطونية والحكمة الهندية والاشراق الافلاطوني الأفلوطيني العرفاني، ففي الصفحة (١٤٦) من كتاب تداعي الحيوان يقولون بان هذا العالم عالم صور كالتصاوير على وجوه الالواح^(٤) وكانهم بذلك يتحدثون عن كهف أفلاطون أو عالم الظلال «الميا» عند الهندوس أو عالم الوهم وبالمناسبة اسم ام الحكيم بوذا هو مايا وتعني الوهم فهل ولد الحكيم في عالم الوهم^{١٩}. وسبقوا عصرهم بقرون في بحث موضوع ترابط الحضارات وأن العالم قرية صغيرة قبل عهد الاتصالات الكهربائية وابن خلدون. فقد اشاروا الى ان العلوم بعضها من بعض واذا سيطرت الأمم وتغلبت فأنها تنسب تلك المعارف بعد نقلها الى بلادهم وينسبوننها الى نفوسهم وهذه حقيقة فكم اخذ العرب من الأمم التي فتحوها وكم اخذ الغرب من العرب في عصر النهضة . عن طريق الاندلس وما لطا^٩.

(٤) تداعي الحيوان على الانسان الرسالة الحادية والخمسين صفحة ٦٥ ٦٦ منشورات دار الافاق الجديدة بيروت ١٩٧٧

-٢-

ولعل الموسوعيين الفرنسيين المستنيرين قد اطلعوا على هذه الرسائل عن طريق الأندلس حيث نقلها الى هناك الكرمانى القرطبي كما نقلت الى اوربا فلسفة ابن رشد وابن سينا وابن خلدون وغيرهم. ولا يمكن القول ان اخوان الصفا كان لهم اثراً سياسياً يذكر ولكن يكفي أن المعري تأثر بهم عندما زار بغداد ولعله كان عضواً في احدى حلقاتهم السرية، فقد كان نباتياً وكذلك ابن سينا اذ تأثر بهم ، اذ كان ابوه وأخوه من الاسماعيلية، ويكفي ان يكون هذان القطبان ممن تأثروا بهم اذ بقيا خالدين لحد الآن. تناولت الرسائل مختلف العلوم من الهندسة الى الاعداد الفيثاغورية وصلتها بالحروف الابجدية وكذلك بحثوا في المنطق الارسطوطاليسي. إما فيما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) فقد تأثروا كثيراً بالفيثاغورية والافلاطونية الحديثة. (افلوطين الاسكندراني) ونجد تأثيرات هندوسية يوغية وخاصة الراجا يوغا فيما يخص الاتحاد بالذات الألهية والوجود الكلي «universal consciousness». وبحثوا في الطريقة العرفانية الصوفية بمختلف اشكالها وطرقها، وقد جمعوا كل ما ارادوا الوصول اليه في الرسالة الحادية والخمسين قائلين بأنها تمثل خلاصة العلم وغاية الغايات^(٥). واعتبروا العالم انساناً كبيراً والإنسان عالماً صغيراً في المفهوم العرفاني وفيك ينطوي العالم الاكبر ، وما قاله الحلاج وغيره من المتصوفه. كان هدفهم تخليص الشريعة من الضلالات اذ جاء في احدى الرسائل ما يلي:

«إن الشريعة دنست واختلطت بالضلالات ولا سبيل لغسلها الا بالفلسفة والحكمة» وهنا نرى بأنهم سبقوا الشيوزوفيين ومنظرتهم هيلينا بلافاتسكي بقرون. السؤال هو من هم هؤلاء الحكماء ؟ وليس لدينا الا النزر اليسير عنهم ويقول زيد بن رفاعة الذي خدمهم وتثقف لديهم أن منهم سليمان بن مشعر البستي (المقدسي) وأبو الحسن بن هارون السنجاني وأبو أحمد المهرجاني وغيرهم ، ولعل السجستاني الذي أثر في الكرمانى في الحقبة الفاطمية منهم. كما بحثوا في الفلك وتأثير الكواكب شأنهم شأن البابليين والفرعنة وأفلاطون وفيثاغورس ، فالأخير يتحدث عن موسيقى كونية، ودعا أفلاطون تلامذته الى دراسة الكون بطريقة صحيحة ، اذ وجه تلامذته لأنقاذ ظاهرة التنجيم «سوزاين لافينومين». اذ تحدث عن البحث في الكون عن ميكانيكيه سماويه منسجمة ، والهندوس لحد اليوم يلجأون الى التنجيم وكذلك الشنتوبوذيون. ولم لاندريس تأثير الكواكب والقمر التابع الذي يؤثر في المد والجزر وحيض المرأة والكآبة فكيف لا تؤثر بقية النجوم والكواكب، بينما اتهمهم بعض الحنابلة بالشعوذة.

(٥) موسوعة العلوم العربية في الجزء الاول من رسائل اخوان الصفا- مقدمة لأحمد زكي باشا من المجموعة الكاملة للرسائل- ١٨٨٠- طبعت عام ١٩٢٨ المطبعة العربية مصر

-٣-

واعتبر الاخوان العدد اصل الموجودات , كما تحدثوا عن العقل الفعال. وتحدثوا عن الموسيقى وتأثيرها في النفوس ونجد نفس التردد في مثنوي مولانا جلال الدين الرومي والطريقة المولوية أو الرقصات الهندية في المعابد و الراكا أو في الاستماع الى جان سباستيان باخ و فيفالدي وغيرها . ونجد انهم دافعوا عن الموسيقى كمظهر للنشورس . وينفس الوقت عابوا الموسيقى المثيرة للشهوات كما يحدث الآن في (الفيديو كليب والراب). يقول دي بور ان هدفهم كان وضع دين عقلاني يعلو كل الاديان. كما كان هدفهم معرفة جوهر النفس وان من عرف نفسه فقد عرف ربه وان الارض كروية وكنقطة في دائرة .واروع ما ورد في الجزء الثاني من الرسائل هو كيفية الوصول الى فيض المعرفة , فالمعرفة تعطى على دفات ولا يمكن اخذها جرعة واحدة . والسبب تراكم ظلمات الاجساد على بصرها وعند اليقظة من رقدة الجهالة وتصحى من سكرة جهالتها فأنها ستصل الى الملاذ الروحانية . اما بيطهم بالقرامطة فلا يمكن الجزم لأنهم كانوا مع اللاعنف والمسالمة^(٦) وقد لفقت الكثير من الاقاويل عن الاخوان والقرامطة وطمست الحقائق في بطون التاريخ وحرانق بغداد المستمرة حتى اليوم..... فقد جاء في المجلد الثالث صفحة (١٦٩) (اياك والمكان الذي تكون فيه المنازعة والخلاف، وان جرى وانت فيه فاخرج وابعد عنه و اياك والظلم والتعدي على من هو دونك) مما يعني انهم كانوا مع اللا عنف . ولعل البعض اراد الاساءة اليهم بربطهم بحركة القرامطة^(٧). وتعاهدوا على ان العقل هو رئيسهم، ومن المؤكد أن المعري كان منهم ويظهر ذلك في ديوان سقط الزند ولزوميات ما لا يلزم اذ جاء في معرض شعرهم «أعوذ بالله من الجهل..... الذي يصم السمع ويعمي البصر».

كقول المتنبي الذي تأثر فيه المعري :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ووصفوا انفسهم انهم العالمون بأمور الديانات ، العارفون بأسرار النبوات ، المتأدبون بالرياضيات والفلسفية والذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا مستشهدين بما قاله صلى الله عليه وآله وسلم «يا بني هاشم يأتي الناس يوم القيامة بأعمالهم، وتجيؤون بأنسابكم فاني لا أغني عنكم من الله شيئا» أي أن العقاب بالأعمال لا بالأنساب. وانتقدوا الطائفة التي تجعل من التشيع مكسبا لها ، مثل النائحة والقصاص قائلين: انهم لا يعرفون من التشيع إلا التبيري والشتيم والطنعن واللعنة وغيره وترك طلب العلم . وأن البكاء هو على نفوسهم .

وفي بثهم لتلك الرسائل فأن هدفهم كان لأحلال العدالة واصلاح النفوس واعطاء العقل القيمة العليا في الجسد الفاني. واستخدم الاخوان البهائم والطير وحتى الهوام في الرسالة

(٦) المجلد الاول من رسائل اخوان الصفا - صفحة ٢١٢ - دار صادر - دار بيروت ١٩٧٧

(٧) المجلد الرابع - رسائل اخوان الصفا الكاملة صفحة ١٤٧ - ١٤٨ - دار صادر ١٩٧٧ - بيروت

الجامعة لإيصال ما يريدون إيصاله في تعبيرات مجازية و تورية لفظية. ان كان في بث معتقداتهم او فن الحكم والسياسة والشريعة. ويمكن القول انهم دعوا الى التوحيد رغم مختلف الاديان والمعتقدات، فقد ورد عن لسان البلبل هزار في الصفحة (٢٤٩) من تداعي الحيوان عن الانسان (الرسالة ٥١)، ان البشر يختلفون بكثرة آرائهم واختلاف مذاهبهم ... الخ.

حتى بين اصحاب المذهب الواحد، اما نحن معشرالحيوان فنفسنا واحدة و نحن موحدون ولكن هؤلاء الناس لا يفقهون تسبيحنا للخالق. أما محاجة الانسان للطير فأردف الانسان قائلاً: ان الصراع ليس من اجل الدين لأن الدين واحد ولكن من اجل سنة الدين الذي هو الملك. (اذا هو صراع على السلطة). وقالوا في ختام الرسالة أن مقالاتنا ليست ملعبة الصبيان و مخرفة الاخوان وان هدفنا في تلك المعاني لتنوير الانسان. ورؤية النور الحقيقي . وشبهوا الدنيا بتلك الجزيرة النائية «بلاصاغون» وان اهلها كالقرود والطائر هو الموت. وكأنهم اعدوا الى الاذهان منطلق الطير للشيخ المتصوف فريد الدين العطار . اما حول القرود فما اشبه ما ذكروه بظلم كوكب القرود وهل نحن عبارة عن تذكر لما اورثتنا اياه حضارات غارقة ومندثرة كجزيرة اتلاننتس... وهل أفنيت البشرية بعد الطوفان الكبير وبقيت الاساطير يتناقلها الاولون ؟

-٤-

الخاتمة

كان هدفي من هذا البحث المقتضب تقصي دروب المعرفة الشائكة والنتيجة التي توصلت اليها أن حركة اخوان الصفا كانت حركة تنويرية اصلاحية، من اهدافها احلال العدالة الاجتماعية وتخليص الدين من بعض الشوائب والرقى بالفرد والمجتمع عن طريق العقل ودعوة لحوار بين مختلف الاطياف والمعتقدات فما احرانا اليوم للعمل على تحقيق حوار بين الاديان والمعتقدات فكفانا عنفاً وهدماً للطبيعة والارض وسنهي الحياة بأيدينا بالاحتباس الحراري وأسلحة الدمار الشامل منها النووية وجشعنا وظلمنا لا للطبيعة فحسب بل ظلم الانسان لأخيه الانسان .

أخيرامن السهل الهدم ولكن البناء صعب فتربية الطفل وإيصاله لسن الرشيد يستغرق سنين ويقتل خلال ثواني برصاصة طائشة . وتشبيد المدن يستغرق قرون من كفاح الإنسان ويمكن هدمها بدقائق بالقنابل، فهل يمكن العيش مع ماتحويه كلمة سلام من معاني ونحن نبدأ التحية بالسلام عليكم ... لايمكنني الجزم.

بغداد - سها الطريحي

كاتبة المقال:

سهي محمد حسن الطريحي:

- كاتبة ومترجمة ودبلوماسية عراقية ولدت في بغداد في ٢ تموز ١٩٣٥.
- درست أولا في بغداد ثم التحقت لكلية بيروت للبنات في قسم العلوم السياسية وبعد تخرجها أكملت بكالوريوس الآداب (قسم الاجتماع) بدرجة امتياز وبمعدل ٩٢٪ وذلك سنة ١٩٥٩.
- في سنة ١٩٦٥ درست في هولندا -معهد الدراسات الاجتماعية- مدينة لاهاي وحصلت على الدبلوم العالي في العلاقات الدولية بدرجة جيد جيدا.
- دبلوم عالي في المنظمات الدولية، معهد الأمم المتحدة للبحوث والتدريب -نيويورك- سنة ١٩٦٩.
- دبلوم المعهد الديوماسي للخارجية العراقية سنة ١٩٨٦ لنيل درجة وزير مفوض بدرجة جيد جدا.
- شهادة معهد دراسات السلم لحل النزاعات بالطرق السلمية -فيينا- النمسا سنة ١٩٨٦.
- عملت في سلك الدبلوماسية العراقية من سنة ١٩٥٩ إلى حزيران ١٩٩١ حيث عملت كملحق وتدرجت إلى وزير مفوض وترفعت خلال ذلك بالخبرة والامتحانات المستمرة.
- تجيد بالإضافة للعربية اللغات: الفرنسية، الإنجليزية، الألمانية.

شغلت عدة وظائف منها:

- سكرتير ثالث ١٩٦١ - ١٩٦٤.
- لاهاي ١٩٦٥ - ١٩٦٦.
- سكرتير أول للسفارة العراقية بروكسل -بلجيكا- ١٩٧٢-١٩٧٥.
- مستشار في السفارة العراقية -نيودلهي- الهند سنة ١٩٧٧-١٩٧٩.
- القائم بالأعمال العراقي في القرن العشرين عملت في دائرة المساعدات الفنية وسكرتير للجان الوطنية.
- موظفة في برنامج الطعام العالمي (WFP).
- في السبعينيات مدير قسم في الدوائر الدولية الأولى والثانية.
- مسؤولة قسم الدولة الاشتراكية.
- وفي الثمانينيات: معاون رئيس الدائرة الإفريقية، ثم مدير في دائرة المنظمات ثم دائرة البحوث، ثم مدير قسم حقوق الإنسان.
- حضرت وشاركت في ثلاث دورات للجمعية العامة للأمم المتحدة.
- مثلت العراق للجنة الاجتماعية للأمم المتحدة في نيويورك المعنية بحقوق المرأة والطفل والشيخوخة وحقوق الإنسان، ولأربعة دورات متتالية.
- حضرت باستمرار اجتماعات اللجنة الاجتماعية والاقتصادية وحقوق الإنسان في جنيف ونيويورك.
- شاركت في مؤتمر المرأة في نيروبي سنة ١٩٨٦.
- لها كتب وترجمات وبحوث ومقالات كثيرة.

من كتبها:

- سياسة القوة (دراسة مقارنة)
- الأمن الخليجي والأمن القومي العربي
- المآزق السوفياتي في أفغانستان
- أوراق حول المساعدات الضنية وغيرها في المحيط الهندي.
- قاموس أساطير العالم (ترجمة).



سهى الطريحي في حديث مع الزعيمة الراحلة «انديرا غاندي»